الكلام البليغ ودراسته

أصبح من المقرر عند الأدباء الآن: أن ليس الغرض من البلاغة[1] سرور النفس وارتياحها بقراءة الشعر البليغ والكلام الممتع والنثر البديع، ليكون ذلك ضربًا من ضروب التسلى فحسب. لأن هذه المدنية الحديثة حملت الإنسان على الاهتمام بالمنافع والفوائد العقلية، كما جعلته ماديًا بحتًا محبًا لنفسه قبل كل شيء. ولذلك أصبحت جميع الفنون مبوغة بصبغة علمية أو اجتماعية، الغرض منها نشر الأفكار والآراء والمباحث الاجتماعية والعلمية فى قالب يسهل على النفس قبوله ويلذ للإنسان تذوقه، ويسحر الألباب فيؤثر فيها الأثر الملطلوب. ولهذا أيضًا قل الاهتمام بالبلاغة الوجدانية التى لا تشتمل إلا على حركات النفوس والخيال وصور العواطف. واعتبروا البلاغة صورة للأفكار والعقول وشيئًا من الحياة العقلية والعلمية للأمم، وجزءًا كبيرًا من تاريخ الإنسان. ورأى بعض كبار الأدباء أن البلاغة كالتاريخ من حيث الاستدلال بها على حياة الشعوب، غير أن التاريخ يدل على الحركة السياسية والبلاغة تدل على الحركة العقلية والاجتماعية. أو يدل التاريخ على حياة الإنسان العملية والبلاغة على حياته النفسية. من فكر وأخلاق وذكاء، وفضيلة ورذيلة، وعلم وجهل وغير ذلك. فجعلوا البلاغة من شعر ونثر وسيلة لدرس طبائع الإنسان ومعرفة نفوس الكتاب. وقصر بعض النقاد همهم على معرفة حقائق النفوس

(١) نريد بالبلاغة ما يطلق عليه الناس الآن اسم "أدب" وهو أثر العقول والأفكار الذى يظهر فى الشعر والنثر (راجع الفصل التالى).

من أثر الكتابات، وبنى مـذهبه فى النقد على ذلك، واستـخرج حالة الكاتب النفسية (بسيكولوجية) من كتاباته[١].

وقالوا إن دراسة البلاغة هى التى نـقلت التاريخ من ذكر الحوادث وسرد الوقائع إلى البـحث فى كل ما يعتـرى الإنسان، وإلى وصف أحواله النفسـية والاجتماعـية. فانتقل التاريخ بواسطة البلاغـة من تاريخ جاف للحوادث إلى تاريخ المدنية الإنسانية. وقالوا إن البلاغة هى سبيل الوصول إلى معرفة أحوال الأمم فى الأزمنة المخـتلفـة، وكيف كـانت تفكر وتشـعـر وتدرك. وذلك مما يساعد على إيضاح التاريخ ويسيـر به فى طريق صحيح، ويبين روح القوانين ومذاهب الاجتماع ورقى الأمم وانحطاطها.

لذلك أصبحت دراسـة البلاغة لدى الأمم الحديثة دراسة لكبـار نفوسها وعقولها المفكرة، أو كما يقولون دراسة للتاريخ الطبعى للنفوس الإنسانية. أو الغرض منها على حسب الاصطلاح العلمى (تشريح) النفوس والأفكار لمعرفة الصحـيح من السقيم مـنها، والحصـول على صورة عامـة من الحياة العـقلية للإنسان. قال سنت بوف: لم يبق لدى من السرور إلا هذا النوع من "تحليل" النفسى الذى يمكن إذ عرف به تاريخ العقول. وكل ما أريده من النقد الأدبى هو جعل البلاغة تاريخًا طبيعيًا للنفوس.. إلى آخر ما قال. فلم تصبح دراسة البالغة قاصرة على الشعـر والنثر الصناعى لا غير بدون نظر إلى صلة الكاتب أو الشاعـر فيـها. بل لابد من اعتـبار كل ذلك. مع البـحث عن الصلة بين الكاتب وبين الحالة الاجتماعية.

(١) كما فعل سنت بوف الناقد الفرنسى الشهير المتوفى سنة ١٨١٩.

ويخيل إلى من يريد أن يدرس بلاغة العـرب أن هذه الطريقة لا تجد لها مجالا فيـها. لأننا إذا أحصيناها وجدنا أنهـا تكاد تكون منحصرة فى نوع من الشعر الوجدانـى الشخصى. ونجد هذا الشعر الذى ظهـر فى الأمم الإسلامية المختلفة والبيئات المختلفة، حافظًا لشكل واحد، وأسلوب واحد، لا من جهة الصناعة لا غيـر. بل من جهة تصور المعانى وإدراكهـا أيضًا، وربما كان ذلك صحيحًا. ولكن لا يلزم مدرس البلاغة العربية أن يبالغ فى ذلك، فقد نجد فى بلاغة العرب ما نجده فى غيرها من أنواع الشعر والنثر، ولكنه ليس ظاهرًا فيها ظهوره فى غيـره لقلته ولاندماجه فى الوجدانيـات. فكأنه إذا جاء فإنما يجىء عفوًا مع ندورته المعروفة. ولذلك لا يصح أن يعـد من أصول اللاغة العربية، ولا من طبيعة هذا اللسان المبين.

على أنه من الممكن أن توجد هذه الطرق الحديثة فى دراسة بلاغة العرب من جهة صلتـها بالتاريخ والاجتمـاع صلة صحيحة، ودراسـة نفوس الكتاب والشعراء من أقوالهم بقـدر ما تسمح به طبيعة هذه البلاغـة وأصولها الفنية. غير أن ذلك لا يتسنى الآن. ولا يمكن أن تثبت هذه الطريقة إلا بعد أن يكثر البـحث على هذا النحـو، يوجد بين المدرسـين والنقـاد علمـاء فى الفلسفـة والاجتـماع تكون لهم طرق واضحـة ومذاهب مبنية علـى لقاعدة فلسفـية أو طريقة اجتماعية علمية.

ولأجل أن تدرس البـلاغة العربـية بهذه الـطرق المفيدة، لابـد من مزج التاريخ الإسلامى بها. إذ لو كان من الضرورى الاستدلال على أطوار البلاغة بدراسة التاريخ، فـذلك ألزم ما يكون فى بلاغة العرب، لأنهـا أشد ما تكون صلة بالتـاريخ. إذ التاريخ الإسـلامى من أكثـر تواريخ الأمم وأشدها حـركة

وانتقالا، وأظهرها أثرًا فى العقول والأفكار. لأنه ليس تاريخًا سياسيًا لا غير، بل هو أيضًا تاريخ دينى، أى تاريخ مذاهب وأحزاب دينية، وآراء فى السياسة والاجتماع مبنية على أثر الدين فى العقول والعقائد . . . ولو كان كل المسلمين الذين ملأوا الأرض شرقًا وغربًا، ودوخوا العالم حينًا من الدهر من أصل عربى، لغتهم العربية الصحيحة، لكانت تصوراتهم وإدراكاتهم عربية، لظهرت مدنية الإسلام ظهورًا تامًا فى بلاغة العرب ظهور مدنيات الأمم الأخرى ى بلاغاتهم. ولكن تغلب الأعاجم على الدولة محا منها كثيرًا من الصبغة العربية وجعلها مدنية إسلامية مختلطة. فلم تجد اللغة العربية من سعة المجال ما كان يكون لها لو أن الدولة كانت عربية صرفة. فمعنى مزج التاريخ بالبلاغة دراسة الاجتماع فى زمن من الأزمان، ودراسة الحالة العقلية، أى معرفة الزمن بواسطة البحث عن كبار المفكرين والعلماء وآثاروا آرائهم فى المجتمع. أو بعبارة أخصر دراسة التاريخ الاجتماعية والحركة العقلية دراسة علمية تاريخية، بقطع النظر عن كل شىء سوى البحث عن الحقيقة، مع الابتعاد عن جميع الميول والأهواء والمذاهب الشخصية بقدر الإمكان، ثم البحث عن ذلك من الوجهة الفنية فى النظم والنثر.

فليس الغرض على رأينا من دراسة الشعر الجاعلى مثلا أن نبين أنه خال من التكلف سهل العبارة، ليس به من التشبيهات والاستعارات ما فى شعر المولدين، وإن فلانًا الشاعر بكى واستبكى وذكر الديار. وإنما الغرض الذى يجب أن يكون ضالة الباحث هو الحالة العقلية لهؤلاء الناس، وعاداتهم الاجتماعية وتربيتهم النفسية، وتصوراتهم وخيالاتهم، ومجموع معلوماتهم وعواطفهم وإحساساتهم، وغير ذلك مما هو لب البلاغة وغرضها. وهذا هو غرض من قال إن الأدب صورة الاجتماع.

لهذا لابـد من العناية بالتاريخ عناية تامـة لمن يريد أن يدرس البـلاغة. وبدون هذه الطريقة لا يمكن التمييز بين شعر وشعر، ولا بين كتاب وكتاب، إلا ما يظهر جلـيًا من الاختلاف فى الأسلوب والديباجـة، مما لا يخفى على من له أدنى ملاحظة. هذه الصلة - صلة التاريخ الاجتـماعية بالأدب والبلاغة - من أهم الطرق التى يجب أن تتبع فى كشف مخبآت العقول، ومعرفة سير الحركة الفكرية لدى الأمم. مع هذا لابد من دراسـة التاريخ الخاص بالكتاب. ونقصد من هنا أيضًا ما قـصدناه هناك من التاريخ العقلى، أى تاريخ النفوس وحركات العـقول، لمن يريد أن يتكلم على شاعر فى شـعره أو ناثر فى نثره، وعلى صلة الكاتب بغيره من المؤثرات التى كـونت عقله، وفكره من أشخاص عرفهم، ومن بيئات تربى فيها، ومن زمن عاش فيه ومر به.

وبعد فـلابد من دراسة الأدب دراسـة تاريخيـة أخرى. نريد بـالدراسة التاريخية عدم العمل على مـذهب أو رأى ثابت يجعله الإنسان قاعدة له قبل الدراسة ليقيس عليه ما يعرف: كاعـتبار أن بلاغة العرب مثلا أرقى وأصح ما أنتجته العـقول والأفكار، أو أنها ناقصة فى جملتـها، قبل الاطلاع والدرس. مثل هذه المباحث المبنيـة على الأهواء الشخصية والمـذاهب الثابتة هى خطأ فى مبدئها وفى نهايتها. ولا يمكن أن توصل إلى شىء من الحقيقة.

وليس الغرض من دراسة البلاغة دراسـة تاريخية، البحث عن الحوادث التاريخية الصرفة، كالعناية بالـتواريخ والأزمنة التى ولد وعاش فيها الكتاب، وسيرهم الخصيـة، أو سرد تاريخ البلاغة فى العصور المختلفة، بـقصد إثباتها كما تذكر الحوادث التاريخية سـواء بسواء. هذه طريقة تاريخية تظهر فى كتب الأدب مكلملة له ومـتممـة لموضوعـاته العامة، كـما يتـخلل الأدب حوادث

تاريخية صرفة، بقصد كشف مخبآته وتوضيح موضوعاته، على أنها ليست من الأدب ولا من البلاغة. ولابد لمدرس البلاغة من الملاحزة الصحيحة والموازنة والمقارنة، تقريبًا للإفهام وإيضاح للبلاغة نفسها. لأن هذا من دواعى ضبط آراء الباحث، وعدم اندفاعه فى المدح أو الذم التابعين للأهواء والأغراض. وهذا أيضًا من علامات الحرية فى الفكر ودقة البحث. فلابد أن يكون الغرض من تدريس البلاغة البحث العلمى المبنى على المعلومات الصحيحة، للوصول إلى الفهم الصحيح الخالى من التعصب القومى والميول المذهبية. فإن مدرس الأدب إن لم يكن كذلك كان كمن لديه نموذج جميل يريد أن يقيس عليه غيره ويجعله مثله. وليس الغرض من البحث والفهم المباحث اللفظية، أى ما يعطيه اللفظ من الدلائل والمعانى اللغوية لا غير، ولا الشرح والتأويل لجملة المانى. بل الغرض البحث عن كل ما تنطوى عليه العبارات، من صور النفوس والآراء وأسرار اللغة، مما يصح أن يعطى للإنسان صورة صحيحة من صور الحياة العقلية للأمم. ثم عن صلة ذلك بالأسباب التى دعت هذه العقول للخوص فى هذه الموضوعات، وولدت هذا النوع من الفكر والخيال، ثم الوقوف على خواص اللغة وأثر الشعوب التى تميز أفكارها من سواها، وأثر الزمن والبيئة فى ذلك، والأنواع التى يكتب فيها الكتاب وقوانينها، وما فى ذلك من شخصياتهم لأن الكتابة تمت بألف سبب لما يحيط بها.

قال الموسيو موريس كروازيه فى مقدمة الجزء الأول من كتاب تاريخ الأدب اليونانى: "إن جملة الخطيب, أو بيت شعر لشاعر أشبه بمرآة ينعكس فيها صورة منها تدل على ماضى اللغة والتاريخ لشعب من الشعوب. وتدل

على الفنى الذى وهبها هذا الشكل. كل هذا يرى فى الكتابات من شعر ونثر . . . . . ولأجل التمكن من الوصول إلى ذلك، لابد للباحث فى اللغة والأدب من أن يطلع على الفنون، ويعرف الأخلاق والنظام الاجتماعى، لترشيده إلى قوة الذكاء للأمم وأثر الحوادث فى ذلك. ولابد من الاعتماد على المخطوطات، لأن الغرض الأولى من دراستها هو معرفة العقول التى يظهر آثارها فى المؤلفات الفنية بواسطة العبارات الأصلية وضروب البيان. ومؤرخ الأدب كالمؤرخ الطبعى، أى المشتغل بدرس العلوم الطبيعية وجمعها، فهو قبل كل شىء ذو ملاحظة خالية من الأهواء والأغراض. وليس معنى هذا أن مؤرخ الأدب ليس له حق الحكم ولا أن يكون له رأى يبديه. ولكن الواجب عليه أن يكتفى بالمعرفة الصحيحة . . يقول سنت بوف. يلزم أن نكون كعلماء الطبيعة: نجمع مجموعات مختلفة تامة من العقول. ولكنا لا نتجنب الحكم عليها تجنبًا كليًا. حتى نبتعد عن تذوقها. بل يكفى أن نمنع أذواقنا من القلق والملل ونوقفها عند حدها، لا أن نميتها موتًا. قال والنقد هو دراسة الأشخاص. أى دراسة الكتاب وقوة الإدراك لديهم، كل على حسب طبيعته بقصد الحصول على صورة صحيحة من نفوسهم، لنضعها فى المكان الذى تستحقه، والمنزلة الفنية التى تليق بها. ولابد من العناية بالنصوص، وموازنة بعضها ببعض، ومعرفة الصحيح من الخطأ فيها".

وهذا هو أساس ما يسمونه الآن طريقة علمية، لأنها مبنية على نوع من التحقيق العلمى الذى لا يتطرق إليه الشك. ولكن ذلك من الصعوبة بمكان فى أدب العرب، لأن الوقوف على "النسخة الأصلية" كما يقولون، لا يكاد يتحقق فى كل المؤلفات، ولا سيما مجموعات الشعر والنثر القديم، غير أن

ذلك لا يمنع من العــمل على ذلك بقــدر الاستطاعــة. على أن الظاهر لنا أن معرفة المؤلفات الأصلية، ربما لا تتحقق فى الأدب العربى.

❊ ❊ ❊

obeikandl.com